الحصة الأولى (تطبيق) رواية زينب لمحمد حسين هيكل (1888 ـ 1956م):

كتابة الرواية وظروف نشرها باسم مستعار:

بدأ هيكل في تأليف روايته في أفريل من عام 1910 م بباريس، عندما كان طالب علم هناك، وكتب أجزاء منها في لندن وأخرى بريف سويسرا خلال العطلة الصيفية، وفرغ من كتابتها في مارس 1911م، وبعد الانتهاء منها تحمس لنشرها، غير أن عودته إلى القاهرة في منتصف 1912م واشتغاله بالمحاماة ، بدأ يضعف ذلك التحمس للنشر، وبقيت مخطوطة أكثر من سنتين. وفي غضون 1914 نشرها بعنوان "مناظر وأخلاق ريفية" بقلم "مصري فلاح"، وقد أفصح هيكل في مقدمة الرواية عن ذلك التردد الذي شعر به. وبمجرد طباعتها تلقفها النقاد وأسهبوا في تحليلها، ورأوا فيها خطوة هامة وحجر الأساس في بناء الرواية العربية. وأمكن لبعضهم معرفة صاحبها الذي اختفى وراء ذلك الاسم المستعار، ولم تأخذ التسمية المعروفة بها اليوم(زينب)، ولم يضع هيكل اسمه الحقيقي على غلافها إلا في طبعتها الثانية، بعدما شاع لدى غالبية النقاد أن (زينب) رواية لمحمد حسين هيكل، وخلال هذه الفترة كان هيكل قد ترك المحاماة إلى الصحافة والسياسة.

يقف وراء استعارة هيكل لاسم (مصري فلاح) بدلا من اسمه الحقيقي مجموعة من الأسباب بعضها أفصح عنه في تقديمه للرواية في طبعتها الثالثة بقوله: « ولقد دفعني لاختيار هاتين الكلمتين شعور شباب لا يخلو من غرابة، وهو هذا الشعور الذي جعلني أقدم كلمة «مصري» حتى لا تكون صفة للفلاح إذا هي أُخِّرت فصارت « فلاح مصري». ذلك أني إلى ما قبل الحرب كنت أحس — كما يحس غيري من المصريين، من الفلاحين بصفة خاصة — بأن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام. فأردت أن أستظهر على غلاف الرواية التي قدمتها للجمهور يومئذ، والتي قصصت فيها صورًا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله، أن المصري الفلاح يشعر في أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفِلاحة شعارًا له يتقدم به للجمهور، يتيه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه.»

مضمون الرواية:

أثار المؤلف بعض أحداث الريف من خلال قصة حب جمعت بين فتاة صغيرة تدعى زينب، وحامد ابن أحد أثرياء القرية الذي تشتغل زينب في حقول والده، وكان الدافع لهذه المعالجة حب الكاتب لوطنه؛ لأم من مظاهر حب المثقف لأبناء وطنه أن يتلمس همومهم ويحاول التعبير عنها، وقد رأى هيكل في ريفه بعض المظاهر السلبية، فأراد التعبير عنها وحاول نقدها: رأى ريفا لا يعترف بالحب ويقف منه موقفا صارما، ريفا يزوج أبناؤه دون استشارتهم، رأى فروقا طبقية تحول دون اقتران ابن السيد الثري بالفقيرة.

غير أن نزعته الرومنسية جعلته يمس تلك المشكلات مسا خفيفا، ركز على نقد الفوارق الطبقية، ولكنه لم يعمق هذه الظاهرة لدى أبطاله، فلم يَعِ كل من حامد أو زينب أو حسن هذا الأمر الطبقي، ولم يشعروا أنهم يعيشون تحت رحمته، والمؤلف وحده الذي فصل بين حامد وزينب لرغبته في إبراز فساد التقاليد من ناحية، ووعيه بالفرق الطبقي بينهما وهو خفي لا يظهر في تصرفات حامد مع زينب، وإن كان يظهر في تعليقات المؤلف نفسه. فلو كان حامد يؤمن بالفارق الطبقي الذي يفصل بينه وبين زينب، ما تعلق بها ولا حلم بالزواج منها؛ لأنه يعرف أن تقاليد الأسر الثرية لا تسمح بمثل هذا الزواج. والأمر نفسه فيما يتعلق بزينب الفلاحة الأجيرة، فتعلقها بابن السيد يدل على أنها لم تعِ ذلك الفارق الطبقي بينها وبين حامد ابن الطبقة الغنية الراقية.

وقد نجح الكاتب إلى حد كبير في تقديم صور ومناظر عن الريف، والقارئ للرواية ينهيها وفي ذاكرته مجموعة من الصور عن حياة هؤلاء الريفيين. وأهم تلك الصور نظرتهم للزواج وتقاليده، فقد أشارت الرواية إلى أن هذه المهمة توكل للوالدين، وليس للأبناء إلا الموافقة، فزينب يزوجها والدها من حسن ابن الشيخ خليل؛ لأن ذلك في نظره ينقلها إلى وضع أفضل من وضعها، مع أنها لا ترغب في مثل هذا الزواج، وحسن هو الآخر لا يجد ما يعتذر به لوالده، وعزيزة تزوج هي الأخرى بالطريقة نفسها، مع أنها كانت ترغب في الاقتران بحامد ابن عمها، يحدث كل هذا لأن سكان الريف لا يعترفون بشرعية الحب.

وأشارت الرواية إلى أبرز أعمال سكان الريف من زرع وحصاد للقطن والقمح وتربية الحيوانات، وأفراحهم في الأعياد والمواسم الدينية، وإيمانهم ببعض المعتقدات والخرافات كالأولياء والعفاريت والجن وقدرتها على التأثير، وفي المقابل ذكرت تأديتهم للمشاعر الدينية، حيث صورتهم في غدوهم ورواحهم من المسجد للصلاة، وتأدية بعضهم لها في المزارع أثناء العمل. وركزت على كرمهم الذي جبلوا عليه، وما اتصفوا به من قناعة وصبر وجد وتآزر وغيرها من الصور التي نجح الكاتب في تقديمها، مما جعل يحيى حقي يقول: « تجعلك الرواية تعيش معها في الريف، وتشم رائحة أهله وأرضه وحيوانه وزرعه وتخاط عن قرب أهل القرية جميعا.»

ملامح بطلي الرواية: (زينب وحامد)

1. شخصية زينب:

تمثل زينب الشخصية المحورية في الرواية؛ إذ تبدأ بها وتنتهي بوفاتها، ونظرا لذلك فقد سميت الرواية باسم: "زينب"، فزينب هي البطلة الرئيسية، و معظم الأحداث الواردة في الرواية تتعلق بها، هذه الفتاة جميلة، والذي تنبه لجمالها بدءا هو حامد بن محمود، الفتى المتعلم الذي كان يقضي عطلته في القرية، ويذهب إلى الحقول، « وتصفح حامد وجوه الموجودين واحدا بعد آخر، فأخذ بعينه جمال زينب. »، ويصف الكاتب جمال زينب بعيون المعجب حامد في موضع آخر بقوله: « إنها ذات عينين نجلاوين متحصنة وراء أهدابها البديعة التنسيق، ينم ثوبها عن جسم خصب.»

تعمل زينب في مزرعة لجني القطن، كما تؤدي الأعمال المنزلية العادية، كالطبيخ والطحين، وسقي الماء، ولا يهتم الكاتب بوصفها وصفا جسديا بأكثر مما ذكرنا.

2. شخصية حامد:

هي الشخصية الثانية في الرواية، وهو أكبر إخوته الثمانية، ينتمي إلى أسرة ثرية، فقد مات جده مخلفا اثني عشر ولدا من ذكور وإناث، ومثل هذا العدد قد مات، وقد تزوج العديد من

النساء، وأب حامد أكبر إخوته، وقد اهتم بحامد على غير العادة دون إخوته، فنشأ مدللا بين إخوته، وكان مختلفا عنهم.

حامد فتى متعلم يعود وقت الإجازة إلى القرية مع إخوته، يسير في الحقول ويهيم بالطبيعة، وقد منحه الكاتب الفرصة للوصف والتعبير، يبلغ حامد من العمر ستة عشر سنة في البداية، وثمانية عشرة سنة في نهاية الرواية. المشكلة التي تعترضه هي الحب وإقامة علاقة مع المرأة، ويبدو حامد ضحية صراع بين الواقع والخيال، بل إن الخيال هو الغالب عليه، فهو في حبه لعزيزة ثم لزينب، يعيش هذا الحب خيالا لا واقعا.

نماذج من رواية زينب:

1. عن الفلاحين:

« فإذا ما تنفس الصبح، وطلعت الشمس وبعثت بنورها على البسيطة، وتلألأ الظل تحت أشعتها، ثم بلغ به الإعجاب بنفسه أن لم يرض بمقامه السفلي، وطار يطلب السماء، فترك عيدان القمح ترجع إليها صلابتها — تعاون العمال جميعًا على جمع ما حصدوا وأعدوه أحمالًا، وانتظر بعضهم الجمل الذي ينقلها إلى الجرن، في حين يرجع الآخرون أدراجهم إلى دورهم، فيقضون نهارًا قليلًا نومه مشتغلين بتجريد بهائمهم التي تنتظر أيام الحرث القريبة. وهناك على شواطئ الغدران والترع يقضون ساعات نيامًا تحت الشجر تعوضهم من كدّهم لعمل الليل المقبل.

وتقضت أيام الحصاد هي الأخرى، وانتقلوا لعمل جديد. واستعاضوا بذلك مكان الليل المقمر ونسيمه العذب وآماله وأحلامه نهار الصيف وشمسه المحرقة.. ولكنهم ما كانوا ليحسوا بذلك أو ليألموا له وقد تعودوه كما تعوده آباؤهم من قبلهم. تعودوه من يوم مولدهم، فانتقل إليهم بالوراثة وبالوسط. وتعودوا ذلك الرق الدائم ينحنون لسلطانه من غير شكوى ومن غير أن يدخل إلى نفوسهم قلقًا. يعملون دائمًا ومن غير ملال، ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة، ثم يقطف ثمرتها سيد مالك كم فكر في أن يبيع قطنه بأغلى ثمن، ويؤجر أرضه بأرفع قيمة، وفي الوقت عينه يستغل الفلاح نظير قوته الحقير، ولم يدر بخاطر السيد يومًا أن يمد له يد المعونة،

أو أن يرفعه من درك الرق الذي يعيش فيه. وكأنه ما علم أن هذا المجموع العامل يكون أكثر نفعًا كلما زادت أمامه أسباب المعيشة وتوافرت عنده دواعي الطمع في أن يحيا حياة إنسانية.»

« يتهلل وجه الفلاح لمطلع القطن لأنه يرى فيه القدير على كل شيء، وحلال كل عقدة.. منه يأتيه قرشه فيعمل ما يشاء، ويتم من شأن نفسه وعائلته ما يريد. وكم من معضلة تسير الأيام وهي واقفة تنتظر بيع القطن. كذلك كم من نابتة تبدأ حياتها مع النبات وتنمو وتكبر وتقوى معه ثم يحين جناها متى حان أن يعطي ذلك الشجر جناه. وقل أن يثبت على الوجود أمر يريد أن يقوم بذاته ويقف بعيدًا عن سلطان هذا المستبد القاهر فوق عباده من سكان مصر. »

2. عن زينب:

« وانطلقت في أيام إلى أسى قاتل، وكاد يبلغ منها اليأس، وتطاولت أمامها الساعات السود حتى أصبحت لا ترى إلا مطرقة الرأس كأن قد فقدت أعز عزيز تحب.

فلما كانت في بعض الأيام، وقد سئمت الناس وحديثهم ووجوههم وكل شيء فيهم، وتاقت للوحدة والابتعاد عنهم وعن شرورهم وسموم جمعيتهم، خرجت بعد الظهر هائمة على وجهها تريد الانفراد في أية مزرعة كائنة ما كانت، فلم يبق لها بين بني آدم أنيس.

وقابلتها الحقول لأول ما خرجت قد نما فوقها القطن ولا يزال شجره صغيرًا ضئيلًا، والأرض مكشوفة قد كستها شمس الربيع ترسل شعاعها وسط الجو الساكن الهادئ، والسماء زرقاء صافية يلمع على سطحها العظيم النور الممتد على الوجود. وعلى مرامي النظر تقوم الأشجار تحف بالمزارع وقد ابتدأت ريح الأصيل تهز أوراقها. فسلكت بينها سكة مدقوقة تركها النور بيضاء سمراء. ولم تك إلا سويعة حتى ابتدأ كل ما يحيط بها تدخله الحياة ويستفيق من غفوة الظهيرة. وابتدأ يقطع صمت الجو الأخرس جماعة الطير تفرّ من فروع الشجر بعد مقيلها وتصدح بنغماتها العذبة، فتضيف إلى الحياة الوليدة معنى السرور والبهجة، ويحمل الهواء أغاريدها يوقظ بها الخليقة النائمة المحرورة. وهكذا تنبعث الحياة في أجزاء الكون وتسري السعادة في جميعه؛ أرضه، وسمائه، وشجره، وطيره، وهوائه، ولا يبقى تحت السماء مما تحيط به دائرة الأفق بائس محزون إلا قلب تلك السائرة في وحدتها.»

« تناولت طعام العشاء مع أهلها، وبقيت معهم حتى إذا حلكت ظلمة الليل وفرغ الناس من صلاة العشاء ولم يبق إلا أن يناموا تمطت إلى جانب أختها وأخيها على حصير قديم، وفردت عليهم جميعًا فوطة من القطن، ونام أبوها إلى الجانب الآخر من القاعة، ولم يكن بأسرع من أن ذهبوا جميعًا في

نعاسهم إلا هي، فقد بقيت في وسط تلك الظلمة تفتح عيونها وتقفلها وتستعيد أمام ذاكرتها المتعبة حوادث النهار، كما تجيء بخيالات الأيام القديمة الماضية فينساب في سواد القاعة وجوه كثيرة مختلفة تسبب لها حزنًا وفرحًا، وسرورًا وألمًا. ويتعاقب ذلك سريعًا، فتنتقل من اليأس إلى الأمل، ومن الرجاء إلى القنوط في كل نبضة من نبضات قلبها. أليس أبوها النائم إلى جنبها ممن يرجون أن يكمل شقاؤها؟ فأين مزية العيش؟ وأي معنى للحياة بعد هذا؟.. أوَلا يصح أن تكذب الإشاعة ويصبح الغد بشيرًا بعد أن كان في مصبحه بالأمس ناعق السوء؟.. كلا!.. ما الغد بخير من الأمس، وما تلك إلا علالة اليائس يريد أن يسلي بها حزنه.. وليكن ذلك، وليشأ أبوها وكل الناس، أفليس في قولها: لا أريد — ما يحسم كل مشكل؟»

3. عن حامد:

« حين بلغ حامد الخامسة من عمره كان طفلًا كثير الدلال، كثير البكاء، موضع الإعزاز من جميع من في الدار. وبالرغم من هذه السن كنت كثيرًا ما تراه محمولًا على أكتاف النساء أو على أعناق الرجال، وكانت أحب الساعات لنفسه الساعات التي يقضيها لعبًا مع ابنة عمه عزيزة حين كانت تجيء إلى القرية مع أمها. ومع أنه أكبر منها بسنتين في العمر فقد كان ظاهر التودد في معاملته إياها؛ لذلك لم تبطئ جماعة المحيطات بهما من النسوان أن يجعلن كلًا منهما عروس صاحبه.

ذهب به أبوه بعد ذلك للكتاب ثم المدرسة. ومرت السنون وهو دائمًا موضع الحب من أهله الذين سرّوا بنجابته ونجاحه. وبقي دائمًا على عادته من المكث بين جدران البلد في حين كان أعمامه وإخوته يجوبون المزارع. وإذا صادف أن خرج مرة مع أبيه لم يكن يدري أين هو ولا ما يملكون. »

4. نهاية الرواية بموت زينب:

« ولم تصل إلى غرفتها حتى عاودها السعال محملًا صديدًا ودمًا، ثم انتابتها حمّى ذهلت فيها عن نفسها، وجعلت من حين لآخر تهذي بكلام متقطع. ثم ارتعدت أمها أن سمعتها تصيح بكل قواها تنادي: يا إبراهيم! وعلاها بعد ذلك سكون أخرس لم تسمع فيه أمها حتى ولا تردّد أنفاسها. وأمسكت بيدها فإذا هي باردة، وإذا عيناها مقفلتان، ووجها ناحل، وعليها كل علامات الموت الذي رددت زينب اسمه في يوميها الأخيرين مرات. وأمام هذا المنظر المريع أبرقت عينا الأم ولمعتا بشيء من اليأس، ثم انقضت ممسكة بيدي ابنتها صارخة: زينب.. يا زينب؟.. ثم خرت إلى جانبها كالجبل المنهَدّ!.. وفي وحدتها إلى جانب الغارقة في لجج الفناء همست: خلاص!

... ثم طلبت زينب إلى أمها أن تأتيها بمنديل محلاوي موضوع في صندوقها، وأخذته بيدها فوضعته على فمها، ثم على قلبها. وكانت آخر كلمة لها أن يوضع المنديل معها في قبرها. وفي وسط الليل أقفلت عينيها وراحت إلى أعماق سكونها، وارتفع صراخ العجوزين يعلن في الفضاء موتها. »

انتهـــى